

(١)

خدمة المجتمع بين العمل التطوعي والواجب الكفائي والعيني

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا
وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ
وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

وبعد:

فإن ديننا الإسلامي الحنيف قد دعا إلى كل عمل إنساني من شأنه أن يحقق
النهضة والرقي في المجتمعات ، ولا شك أن خدمة المجتمع من أهم عوامل تحقيق
النهضة والرقي ، ونشر المحبة والتآلف بين أبناء المجتمع الواحد ؛ وإن من أهم
سمات المجتمعات الراقية أن تكون مترابطة قوية ، متماسكة في بنائها ، يشد بعضها
بعضاً ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا
وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ ،
وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ
بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى) .

ولقد حثنا الشرع الحنيف على خدمة المجتمع من خلال الترغيب في العمل
التطوعي ، والدعوة إلى المسابقة في الخيرات ، والمنافسة فيها ، والمسارعة إليها
حتى لا تسيطر علينا الفردية ، أو الأنانية ، أو السلبية ، فقال تعالى : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } ، وقال سبحانه : { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى
اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا } ، وقال سبحانه : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(٢)

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ
الْعَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، وقال جل شأنه في وصف
المؤمنين : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } ، وقال تعالى في الحث على نفع الناس ،
وقضاء حوائجهم ، والسعي إلى تفريج كربهم : { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ
أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } .

وقد أرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهمية العمل التطوعي ، وبين
مكانته بدعوة صريحة إلى تقديم يد العون للآخرين ، وبذل الفضل لهم ، والتوسعة
عليهم ، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ
(صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصْرَهُ يَمِينًا
وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ
عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ) ، قَالَ :
فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ . وقال
(صلى الله عليه وسلم) : (يَا ابْنَ آدَمَ : إِنَّكَ إِنْ تَبَدَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَإِنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ
لَكَ ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كِفَافٍ ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) ، وقال
(صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ
كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا

كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...) ، وعندما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) : أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ (تعالى) ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله (عز وجل) ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْرِدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلَئِنْ أَمْشَيْتَ مَعِ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، (يعني المسجد النبوي) شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ - وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ - مَلَأَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَتَبَّتْ لَهُ أَتْبَتَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه ، ويتعهدهم بالسؤال عن ذلك ؛ تحفيزاً لهم على فعل الخير ، ومن ذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) سألهم ذات يومٍ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟) . فقال سيدنا أبو بكرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً) ، فقال سيدنا أبو بكرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَسْكِينًا) ، فقال سيدنا أبو بكرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا) ، فقال سيدنا أبو بكرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) .

والعمل التطوعي هو : ما تبرَّعَ الإنسان ليقوم به من تلقاء نفسه مما لا يلزمه ولا يجب عليه ، ولا يبتغي من وراء ذلك نفعاً مادياً ولا معنوياً ، وإنما يقدمه عن طواعية

(٤)

واختيار ؛ رغبة في نفع الناس ومساعدتهم ؛ وطلباً لمرضاة الله (عز وجل) ، فالعمل التطوعي دليل على الإيجابية التي يجب على المسلم أن يتحلى بها ، والتي تعني الشعور بالمسؤولية والمشاركة الفاعلة في بناء المجتمع بالتوجيه والإصلاح والارتقاء بالفرد والوطن ، ومن ثم يتحقق فيه قول الله تعالى : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

والعمل التطوعي بالنسبة للمسلم نوع من أنواع العبادة يقوم به المسلم انطلاقاً من شعوره بالمسؤولية تجاه مجتمعه ، وتجاه الإنسانية كلها ، بل وتجاه جميع المخلوقات ، وقد ذكر لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن رجلاً دخل الجنة في كلب سقاه ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بئراً ، فَتَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَتَنَزَلَ الْبئرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ فِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَرَ لَهُ) قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ) . وعن أنس (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (سَبْعُ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ : مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بئراً ، أَوْ غَرَسَ نَخْلاً ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) .

وعلى الرغم من أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع من باب المندوب أو المستحب ، فإن الأمر قد يتحول من الندب إلى الوجوب ، وقد قسم أهل العلم

(٥)

الواجب إلي عيني وكفائي، فالواجب العيني : هو ما يجب وجوباً لازماً علي كل فرد من الأمة ، لا يقوم غيره فيه مقامه ، والواجب الكفائي : إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعاً ؛ فلو أن رجلاً تطوع لإدارة عمل خيري تكلف إنشاؤه مبالغ كثيرة ، وتعلقت بهذا العمل مصالح بعض أفراد المجتمع ، فإن عليه أن يتم هذا العمل ولا يتوقف في منتصف الطريق بحجة أنه متطوع وليس ملزماً بشيء ، ويكون هذا الوجوب كفائياً إذا كان هناك أحد غيره يمكنه القيام بهذا العمل ، ويكون واجباً عينياً في حقه إذا لم يكن هناك من يقوم بهذا العمل بدلاً منه ، فضلاً عن أن النكوص عن تحمل المسؤولية المجتمعية يتنافى مع الشهامة والمروءة التي يُحْتَمَى عليها الواجب الإنساني ، وقد قال بعض الحكماء : أعظم المصائب أن تقدر على المعروف ثم لا تصنعه .

ولله در المتنبي حيث قال :

وَلَمْ أَر فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
إخوة الإسلام :

لا شك أن خدمة المجتمع من خلال العمل التطوعي صورة من صور حماية الأوطان والعمل على رقيها وتقدمها ، فإن حماية الأوطان لا تقتصر على مواجهة العدوان فحسب ، بل إن العمل على تحقيق التكافل الاجتماعي ، والتعاون علي البر

(٦)

والتقوى وصولاً إلى حياة اجتماعية كريمة ينعم فيها الفقير بنعمة الأخوة الإنسانية الرحيمة ، ويجد فيها المحتاج من يشاطره الألم ويفرج عنه همومه وأحزانه من بني وطنه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

فإن واجب الوقت وفقه الأولويات يحتمل على جميع أبناء الوطن المخلصين المدركين لطبيعة المرحلة ، وحجم التحديات المحيطة بنا أن يقفوا جميعاً صفاً واحداً حتى تحقق الكفاية لوطنهم كل في مجال عمله ، فأهل الطب يتعاونون في تحقيق الكفاية لوطنهم ، وكذلك رجال القانون ، والهندسة ، والزراعة ، والتعليم ، وسائر التخصصات والصناعات وذلك بتنمية روح البذل والعطاء والتطوع ، والبعد عن الأثرة والأنانية وحب الذات ، وبهذا يتحقق التكافل الاجتماعي ويتحقق التكامل أيضاً ، فهذا يعمل بيده ، وذاك ينفق من ماله ، وهذا يعلم الناس ، وبهذا يتم توظيف جميع الطاقات والمواهب لخدمة مجتمعنا ، ولعل من أهم الأولويات سعي رجال الأعمال المخلصين الوطنيين لاستثمار أموالهم في بلدهم وتوفير فرص العمل لأبناء هذا الوطن الكريم ، ويقول الشاعر :

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِي إِذَا اعْتَرَى خَطْبٌ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا أَحَادًا
تَأَبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسُرًا وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكْسَرَتْ أَفْرَادًا

إن حوائج الناس متنوعة ، ودروب العمل التطوعي كثيرة ما بين إطعام جائع ، وكسوة عارٍ ، وعيادة مريضٍ ، وتعليم جاهلٍ ، وإنظار معسرٍ ، وإعانة عاجزٍ ، وتفريج هم ، وإزالة غم ، وكفالة يتيم ، وسعي في شفاعة حسنة تفكُّ بها أسيراً ، أو

(٧)

تصلح بها بين متخاصمين ، أو تحقنُ بها دماً فكل ذلك من التطوع بالخير ،
فإن كنت لا تملك هذا ولا ذا فادفع بكلمة طيبة ، وإلا فكفَّ أذاك عن الناس ،
يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ
يَجِدْ؟ قَالَ : (يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) ، قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟
قَالَ : (يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ) ، قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ : (يَأْمُرُ
بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ) ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ : (يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا
صَدَقَةٌ).

اللهم إنا نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين .